في ذكرى وفاته العاشرة..

فيصل علوي.. عاشق العود والطرب الشعبي

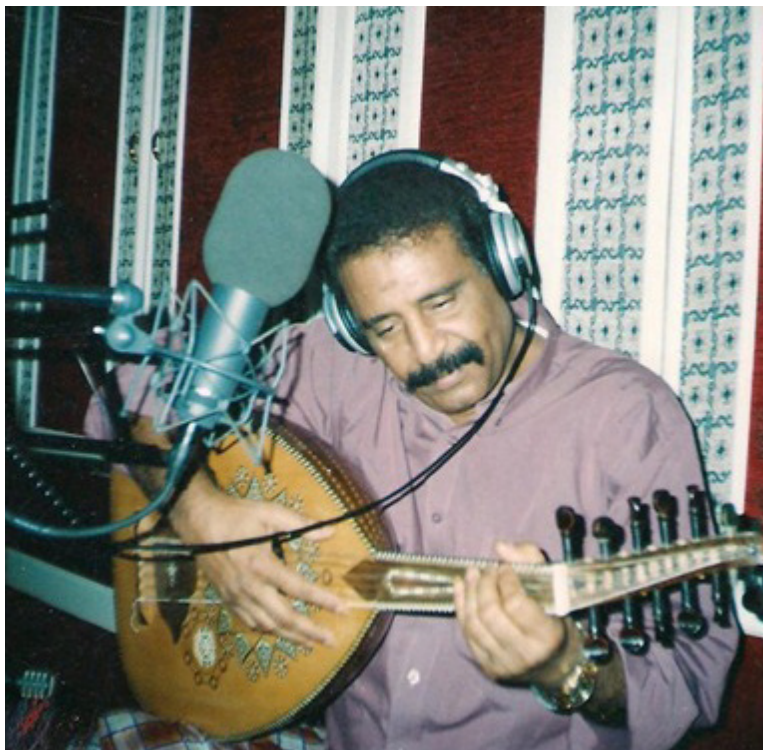

الأمناء كتب/ د. يحيى مولى الدويلة:

نشأته وبداياته الفنية

من المؤكد أن أكثر من عنصر في حياة فيصل علوي ساهم في تكوين علاقته الخاصة بينه وبين الغناء الشعبي لعل أهمها نشأة علوي ولعلوي أحاديث مطولة عن أثر هذه النشأة العميق في تكوين شخصيته الإنسانية والفنية فقد تمكن منذ وقت مبكر (خمسة عشر عاما)، وفي هذه السن كان بن علوي فتى يافع ويتيم أبوه وإخوانه رباه عمه لأن جميعهم توفوا في سنة واحدة بالإصابة بالجذري وكان ذلك سببا لزواجه المبكر أيضا في هذه السن المبكرة لحفظ وتخليد سلالة أبوه من الانقراض كما شاءت أن تضعه الظروف أن يكون هو أيضا محافظا للتراث الشعبي للأغنية اللحجية الشعبية فقد جاءت الفرصة وحفظ تراث القمندان وتعلم العود والكمنجة في أسبوع وفجأة نزل مثل «القنبلة» كما وصفته الصحف المحلية آنذاك، في البدء حفظ أشعار وألحان القمندان وأتقنها وتذوق أشعار القمندان وفهم معانيها وإيقاعاتها الموسيقية، وكأن الظروف نشأت لرائد آخر هو (فيصل علوي) أن يتولى مهمة أطلاق الفن اللحجي من قمم الأغنية التقليدية اللحجية الكلاسيكية، الذي تسلمها من جيل الأسلاف لتسليمها للأجيال التالية من المبدعين اليمنيين، ومن هذه اللحظة بدأ علوي رحلته الأسطورية ليصبح صاحب أفضل صوت صادفته الأذن اليمنية.

كيف صعد فيصل علوي إلى قمة الفن؟

كانت أولى أغنياته ومن ألحانه «فوش له قلبي الصغير» وكان أول شاب صغير يحط لازمة موسيقية في مقدمة الأغنية اللحجية وهذا اللحن «يا حبيبي» ثم أغنية «يا فاتن جمالك». وكان صوته قويا جهوريا، أشحب في بعض الأحيان، فيه بحة وعذوبة وفيه أيضا بعض الخشونة والرجولة، وكانت تلك أول مرحلة في حياة بن علوي الاحترافية بعد ذلك، ولما أكتشف علوي في نفسه موهبة التلحين وأقلع نهائيا حتى نهاية عمرة عن الغناء من ألحان سواه، وصعد نجمه وانتشرت أغانيه في بقاع الأرض والدول المجاورة وكان بحق سفير الأغنية الشعبية دون منافس، ولولا فيصل علوي لم وصلت الأغنية الشعبية اللحجية وغيرها إلى الجزيرة والخليج بهذه القوة وهذا الحضور، لقد لامس صوته قلوب الجماهير. حاول الكثير أيجاد مقارنة بين القمندان وعلوي، فهل كان بن علوي تكرارا للأب الروحي للأغنية الشعبية اللحجية أم أن دوره اقتصر على الحفاظ على تراث القمندان أم أنه هو الآخر رائدا وإذا كان كذلك ما الذي أضافه وطورة في الأغنية الشعبية اللحجية. وبمناسبة ذكرى وفاته العاشرة نحاول الاجابة على هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة تهم القارئ وجمهور الفنان الكبير والخالد فيصل علوي.

كيف دخل فيصل علوي فردوس السياسة واكتوى بنارها؟

ارتبط بن علوي مع الزعيم الجنوبي الراحل سالمين منذ وقت مبكر أي قبل وبعد الاستقلال بعلاقة قوية حيث أنتدبه إلى ندوتهم «الندوة الفضلية" في أبين، وقام بدعمه مادياً وانتدبه مندوبا وفنان للندوة الفضلية التي كان يرأسها سالمين وبالرغم من أن بن علوي لم يكن سياسيا فقد نفذ وصية سالمين في نشر الأغنية الحماسية الثورية والبلاد كانت على مشارف الاستقلال فغنى "الاستشهاد غاية كل مدرم» و»سرت ليلة على الفئران حية» و "كل شيء بنجي عليه". واستمع بن علوي لنصيحة سالمين بإقامة الحفلات الفنية في مصر والكويت ولندن لصالح بناء المدارس والعيادات الصحية في لحج. ويبدو أن الأيام السعيدة لم تدم طويلاً فقد تم القضاء على سالمين وجاء عصر جديد له فلسفة مختلفة تجاه الفن وقد عبر علوي عن تلك المرحلة بأغنيته الشهيرة (دمال) حيث شبه النظام آنذاك بالدمال الذي يحتاج إلى جراحة لاستئصاله، وبدأ العهد الجديد يبحث عن وجوه جديدة ترتبط به وبالفعل بدأ الأعراض عن أعمال فيصل علوي الفنية في وسائل الأعلام في تلك الفترة، وتحت السطح بدأ تلميع وتجهيز صغار العامة وضعاف الإمكانيات والمواهب ليحتلوا هرم الموسيقى وتولوا مهمة الحفاظ على التراث بطريقتهم وامتلأ المسرح الوطني بعناصر من القوات المسلحة وأجبرت الجماهير على المشاركة، ولحسن حظ علوي وعشاقه لم يستمر هذا الوضع طويلا فسرعان ما تبدل وجاء عصرا جديدا من الانفتاح أطلق العنان لعلوي من جديد.

هل كان لفيصل دور في تجديد وتطوير الأغنية اللحجية الشعبية؟

وجد علوي تراثا فنياً غنيا بالألحان الجميلة فجاء ووظف هذه الألحان وسكب عليها روحه وأكمل الجمل الموسيقية في هذه الألحان والأغاني الخالدة، وأضاف لها إحساسه الفني. وهناك أكثر من مكون في حياة علوي دفعه إلى اتخاذ «الغناء الشعبي» منصة أساسية لإطلاق أهم مجهوداته في تطوير الأغنية اللحجية وخدمتها. بدأ فيصل علوي حياته الفنية مقلدا لأداء الفنان الكبير فضل محمد اللحجي في أغنية كحيل العين» وأغنية «ليتني حبيبي» ثم بعد عشرون عاما تحولت تلك الموهبة إلى ظاهرة معينة بل أصبحت مدرسة في عزف وأداء الأغنية الشعبية اللحجية خصوصا لدرجة إننا لا نجد أي فنان لم يتأثر بعزف وأداء الفنان فيصل علوي أو أن روح علوي الفنية لم تفرض عليه فرضا أو أن يسلم من مظهر من مظاهر تجلياتها على الأقل. وفي هذه الفترة وبعد أن لمع نجم علوي ليس فقط كمطرب أو ملحن بل كرائد من رواد التجديد ولو وضعنا ما أنتجه علوي في فن الأغنية الجنوبية على الخريطة العامة لمجمل نتاجه الفني فإننا سنلاحظ أن قيمة فن الأغنية الشعبية اللحجية كان الباب الأول الذي دخل منه هذا الفنان إلى عالم الاحتراف، حتى عندما كان في خطواته الأولى قدم نفسه كمطرب شعبي. حتى أصبح كل لحن يؤلفه بن علوي عبارة عن نقلة جديدة في الأغنية اللحجية فصار اليوم علما معروفا في سماء الأغنية الجنوبية، فقد قام علوي بتجديد بعض الألحان وأبتكر ألحانا جديدة وبذلك يكون أول فنان قام بتطوير الأغنية اللحجية الشعبية. وبات فعلا صاحب مدرسة في هذا الخصوص وقد تتلمذ على مدرسته عدد كبير من الشباب والفنانين أمثال أمل كعدل وعبود الخواجة وغيرهم من الذين بدأوا مقلدين له وأصبحوا أعلاما ومشاهير في سماء الأغنية اللحجية، وبات لا يستطيع الكثير من المواهب الشابة الصعود إلا من خلال بوابة فيصل علوي.

ازدهار الرقص الشعبي على أنغام إيقاعات بن علوي

على أن لعلوي دور في تطوير الإيقاع الحركي الراقص في ألحانه البديعة الراقصة، وحركات الرقص لها تعقيداتها الخاصة وتطويرها ليس بالأمر الهين، فحركات الرقص ما هي إلا ترديدا لحركات مناظرة لها داخل الجسم الإنسان أو في الطبيعة الخارجية، الذي يؤدي إلى تكوين ما يسمى بالحاسية الإيقاعية لدى الإنسان والإيقاع الموسيقى يستمد من إيقاع الطبيعة أو يكون ترديدا له، لكن حينما يكون لغة فنية أبتكرها الفنان للتعبير عن إحساسه بالإيقاعات الباطنية لانفعالاته وعواطفه ومشاعره بوجه عام، يكون الأمر مختلف فلدى علوي هذه اللغة وهذه القدرة على تحريك مشاعر الناس في صورة إيقاعات وحركات، لقد نضج هذا الحس وتتطور مع علوي وأرتبط ارتباطا وطيدا مع العود وهي أهم أداة أو آلة موسيقية شرقية، سهل له التلاعب بنغماته لتحريك مشاعر الجماهير ببساطة وتلقائية شديدة. ففي أغنية «هيثم عوض قال» أستمع لها الناس بالأسلوب التي تغنى من قبله ثم عزفها وغناها بن علوي بأسلوبه الراقص فاهتز الحاضرون تفاعلا مع طريقة غنائه وبأسلوبه فقال فيصل: لما أدخلت أسلوبي تراقص الجمهور، هذا هو الذي جاء به فيصل يعني الفنان لازم يخلي جمهوره يتراقص معه لازم يكون حيويا، فهناك من يغني وهو مثل الجدار مثل الصنم وهذا خطأ لأن شخصية الفنان وحضوره أثناء أداء الأغنية من أهم خصائص الأغنية الشعبية باعتبارها تمتلك القدرة الكافية للوصول إلى قلب المستمع.

نوادر فيصل علوي

اشتهر علوي بقفشاته وتعليقاته الذكية اللماحة ولديه سرعة البديهية فلا تخلو لقاءاته التلفزيونية المباشرة من النكات والنوادر وسريعا ما تصبح نكاته حديث الناس ومن نكاته حينما سئل ما إذا كان يعرف "بيتهوفن"، أجاب بخفة دم: لا لا أعرف بيتهوفن ولكن أعرف بيت عياض. ويحكي أيضا في لقاءاته التلفزيونية قصة لم نعد ندري ما إذا كانت تدخل في باب النكتة والطرف أو الجدية حيث قال مرة وهو في زيارة للعراق وأراد أن يشتري عودًا وأضاف وترين للعود وكان يعزف بكل حرية ودقة فاندهش بائع العيدان وأهداه العود، وفي لبنان التقى فريد الأطرش وأخبره بالقصة فلما شاهده الأطرش اندهش، وأخبره علوي: مش بس كده يمكنني أن أضيف ستة أوتار! فصاح الأطرش وقال: لا إلى هنا كفاية!!.

كيف نحافظ على تراث فيصل علوي وتخليد ذكراه؟

كان فيصل علوي خليفة القمندان في ألحانه وأشعاره وكان أيضا خليفة اللحجي، وقد حافظ على تراثهما لكنه بالمقابل قام بتجديد وتطوير هذا التراث والإضافة له. ومع تقديري للأصوات التي صاحبت ظهور وصعود علوي فقد سكتت معظم هذه الأصوات وبقي هو أمير الأغنية اللحجية الشعبية دون منازع. لقد سطع نجم بن علوي وتسارع الكثيرين لكتابة قصائد غنائية له، وتوثقت علاقاته مع الجيل الجديد من الشعراء وتسابق الشعراء لدرجة أنه برزت بعض المشاكل المتعلقة بالحقوق الملكية وحدوث خلافات بين بعض الشعراء حيث كثير ما نجد تضارب في نسب عدد من الأغاني إلى غير شعراءهم الحقيقيين الأمر الذي يتطلب البحث والمراجعة للأعمال التي فيها خلاف والتحقيق في حقوق الملكية. وقد أتيح لعلوي أن يعيش فترة كافية ليشهد تبنى الشعب لإبداعاته الفنية، ففي بلادنا يسقط الفنانون كأوراق الخريف ولكن أسماءهم لا تموت، ولن ينسى الشعب اليمني مبدعنا الأصيل فيصل علوي، وستظل الأغنية الشعبية لهذا الفنان محفورة في ذاكرة الناس. وحتى نحافظ على تراث هذا الفنان لابد من قيام متحف وإنشاء أرشيف صوتي يشمل تسجيلات كل الفنانين وصيانة التراث المسموع من التحريف أو التعديل وحرصا على أصالة وتطويرها تقع على الباحثين والنقاد الموسيقيين الانتخاب الجيد للإنتاج الفني لبن علوي وغيره من عمالقة الغناء الجنوبي، وتطوير مناهج البحث العلمي في جمع، توصيف وتحليل التراث الفني لهذا الفنان وتخصيص جائزة فنية باسمه تخليداً لذكرى هذا الفنان.